

مُوسَى وَالْعَلِيَّةُ الْمُتَّفِدَةُ
المحاضرة ٨: أهية: ذاتية وجود الله
أ.ر. سي. سزول

نُتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِمَعْنَى اسْمِ اللَّهِ، الَّذِي أَعْلَنَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ لِمُوسَى وَجَعَلَهُ اسْمَهُ التَّذْكَارِي لِجَمِيعِ الْأَجْيَالِ؛ إِنَّهُ الْاسْمُ "يَهُوه"، وَتَرْجَمَتُهُ هِيَ "أَنَا هُوَ الَّذِي هُوَ".

فِي الْعَصْرِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ نَرَى أَنَّ الْإِيمَانَ الْمَسِيحِيَّ يَتَعَرَّضُ بِاسْتِمْرَارٍ لِهُجُومٍ مِنْ جَانِبِ الْعَالَمِ الْعِلْمَانِي، وَأَنَّ أَسْلِحَةَ التَّقْدِ مُوجَّهَةٌ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ نَحْوَ هَدَفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ الْهَدَفُ هُوَ مَفْهُومُ الْخَلْقِ. لِأَنَّ كُلَّ عِلْمَانِيٍّ يُدْرِكُ مَا يَلِي، وَهُوَ أَنْكُمْ إِذَا اسْتَطَعْتُمْ دَحْضَ وَرَفْضَ مَفْهُومِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلْخَلْقِ فَبِذَلِكَ تَكُونُونَ قَدْ وَجَّهْتُمْ صَرْبَةً قَاضِيَةً لِلْمَسِيحِيَّةِ وَلِلدِينِ بِحَدِّ ذَاتِهِ.

وَنَسْمَعُ فِي الْاِنتِقَادَاتِ عِبَارَةً سَاخِرَةً تُفِيدُ بَأَنَّ الْفِكْرَةَ الَّتِي تَعْتَبِرُ الْكُونَ مَخْلُوقًا عَلَى يَدِ اللَّهِ، ذَلِكَ الْكَائِنِ الشَّخْصِيَّ الْمُتَعَالِيَّ غَيْرَ الْقَابِلِ لِلتَّغْيِيرِ، هِيَ غَيْرُ عِلْمِيَّةٍ وَعَيْرُ مَنْطِقِيَّةٍ، وَهِيَ أَسْطُورَةٌ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ. وَهَذَا هُوَ التَّقْدُ الَّذِي نَسْمَعُهُ كُلَّ الْوَقْتِ.

بِالطَّبْعِ، فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ شَهِدْنَا التَّحَوُّلَ الْهَائِلَ لِأَنَّتُونِي فُلُو مِنَ الْإِلْحَادِ إِلَى الْإِيمَانِ فِي بَرِيطَانِيَا، ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي أَلَّفَ يَوْمًا مَثَلًا حَمَلَ اسْمَهُ، وَهُوَ مَثَلُ فُلُو. وَقَدْ حَاوَلَ فِيهِ إِسْقَاطَ أَيِّ دَلِيلٍ حَقِيقِيٍّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ. وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ، آمَنَ بِاللَّهِ لِلْسَّبَبِ الْآتِي: فَهُوَ أَذْرَكَ أَنَّهُ بِدُونِ فَرْضِيَّةٍ وُجُودِ اللَّهِ، الْعِلْمُ بِحَدِّ ذَاتِهِ مُسْتَحِيلٌ.

وَالآنَ، تَرْجِعُ إِلَى عَصْرِ التَّنْوِيرِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ لِيَتَفَهَمَ جُذُورَ مَذْهَبِ الشُّكُوكِيَّةِ الَّذِي نُصَادِفُهُ كُلَّ يَوْمٍ. الْفَرْضِيَّةُ الرَّئِيسِيَّةُ لِد "أُوفْلُورُونج" أَوْ التَّنْوِيرِ هِيَ تِلْكَ الْفَرْضِيَّةُ الَّتِي تُفِيدُ بِأَنَّ فَرْضِيَّةَ وُجُودِ اللَّهِ لَمْ تَعُدْ ضَرُورِيَّةً لِكَيْ يُفَسَّرَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ نَشْأَةَ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ نَشْأَةَ الْكُونَ. وَقَبْلَ التَّنْوِيرِ، كَانَتْ فَلْسَفَةُ الْقُرُونِ الْوُسْطَى تَفْرِضُ عَلَى الْفَلَسَفَةِ -حَتَّى إِنْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ- أَنْ يُقَدِّمُوا نَحِيَّةَ إِكْبَارِ وُسْجُودِ الْفَلْسَفَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِهِمْ تَفْسِيرُ وُجُودِ هَذَا الْكُونَ بِدُونِ الْاِحْتِكَامِ إِلَى فِكْرَةٍ وُجُودِ كَائِنٍ مُتَعَالٍ.

وَمَعَ ظُهُورِ نَقَافَةِ التَّنْوِيرِ سَقَطَتْ هَذِهِ كُلُّهَا، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ جَاؤُوا وَقَالُوا "يُمْكِنُنَا تَفْسِيرُ وُجُودِ الْكُونَ، يُمْكِنُنَا تَفْسِيرُ نَشْأَةِ الْحَيَاةِ، بِدُونِ الْاِحْتِكَامِ إِلَى فِكْرَةِ وُجُودِ إِلَهٍ مُتَعَالٍ". وَالْبَعْضُ مِنْ هَؤُلَاءِ -وَضَمَّنَ الْمُسُوعَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ- أَعْلَنُوا صَرَاحَةً أَنَّهُمْ الْأَعْدَاءُ الشَّخْصِيُونَ لِلَّهِ. وَقَالُوا: "نَحْنُ نَعْرِفُ الْآنَ كَيْفَ خَرَجَ الْكُونَ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ وَكَيْفَ نَشَأَتِ الْحَيَاةُ". فَهُوَ نَشَأَ مِنْ خِلَالِ مَا أَسْمُوهُ "التَّوَلَّدَ التِّلْقَائِيَّ".

كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى بَرَكِ الطِّينِ، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا الصَّفَادِعَ تِلْكَ، وَفَجَأَةً، كَانُوا يَرَوْنَ صَفَادِعَ صَغِيرَةً تَسْبُحُ فِي بَرَكِ الطِّينِ فَيَقُولُونَ: "آه! مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ؟" لَمْ يَفَكِّرُوا فِي احْتِمَالِيَّةِ أَنْ تَكُونَ الطُّيُورُ حَلَقَتْ وَوَضَعَتْ بُيُوضًا فِي الْمَاءِ. بَلِ اعْتَبَرُوا أَنَّ تِلْكَ الكَائِنَاتِ، وَبِشْكَلٍ مُفَاجِئٍ، خَرَجَتْ إِلَى حَيِّزِ الوجودِ بِفَضْلِ قُوَّتِهَا الخَاصَّةِ، أَيْ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ذَاتِيًّا. هَذَا هُوَ مَعْنَى مَفْهُومِ التَّوَلَّدِ التِّلْقَائِيِّ.

دَعُونِي أَدْعِمُ كَلَامِي بِدَلَائِلِ عِبَرِ قَوْلِ مَا يَلِي: "إِذَا كَانَ لِأَيِّ شَيْءٍ وُجُودٌ الْآنَ، تُوجَدُ ثَلَاثَةٌ تَفْسِيرَاتٍ عَامَّةٍ مُمَكِّنَةٍ فَحَسَبُ لوجودِ شَيْءٍ مَا بَدَلًا مِنْ لَا شَيْءٍ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ الجِسْمُ المَوْجُودُ أَرَلِيًّا، أَوْ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا ذَاتِيًّا، أَوْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ أَرَلِيٌّ قَدْ خَلَقَهُ". لَاحِظُوا أَنَّهُ فِي هَذِهِ الاحْتِمَالَاتِ الثَّلَاثَةِ -وَلَا وَقْتُ لَدَيَّ لِلتَّطَرُّقِ إِلَى كُلِّ مَوْضُوعٍ فَرَعِيٍّ عَلَى حِدَةٍ- لَكِنِّي يُمَكِّنِي أَنْ أَقُولَ لَكُمْ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ: قَدَّمْتُ هَذَا العَرَضُ فِي "بيل" مُنْذُ سَنَوَاتٍ عِدَّةٍ، وَأَتَحْتُ لِلْفَلَسَافَةِ هُنَاكَ فُرْصَةً لِلتَّفَاعُلِ، لَكِنَّهُمْ لَزِمُوا الصَّمْتِ فِي مُعْظَمِ الوَقْتِ. كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُوَافِقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَصِحَّ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الاحْتِمَالَاتِ الثَّلَاثَةِ. وَقُلْتُ: "أَنْتُمْ ثَلَاثُ حِطُّونَ أَنَّ احْتِمَالَيْنِ مِنْ أَصْلِ ثَلَاثَةٍ يُفِيدَانِ بوجُودِ شَيْءٍ أَرَلِيٍّ. إِذَا، إِذَا اسْتَطَعْنَا حَذْفَ الاحْتِمَالِ الثَّلَاثِ فَإِنَّا نَكُونُ قَدْ أَثْبَتْنَا الفَرَضِيَّةَ الَّتِي تُفِيدُ بَأَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ مَوْجُودًا مُنْذُ الأَرَلِ". بِالطَّبَعِ، يَجِبُ أَلَّا تَدْخُلُوا فِي جِدَالٍ فِي هَذَا الشَّانِ. فَكَمَا ذَكَرْتُ سَابِقًا، إِذَا كَانَ أَيُّ شَيْءٍ مَوْجُودًا الْآنَ، فَلَا بَدَّ أَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ مَوْجُودًا دَائِمًا، وَإِلَّا، لَمَا أَمَكَّنَ أَيُّ شَيْءٍ أَنْ يُوْجَدَ، إِلَّا بِمُوجِبِ احْتِمَالِ التَّوَلَّدِ التِّلْقَائِيِّ، وَهُوَ مُرَادِفٌ لِلخَلْقِ الذَّاتِيِّ.

أَوْدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ إِنَّ مَفْهُومَ الخَلْقِ الذَّاتِيِّ هَذَا يَحْظِي بِكَثِيرٍ مِنَ المِصْدَاقِيَّةِ وَالْمَوْثُوقِيَّةِ فِي مُجْتَمَعِنَا الخَدِيثِ. لَكِنَّ حَمْسَ دَقَائِقٍ مِنَ الدِّرَاسَةِ المَتَّانِيَّةِ لِهَذَا المَفْهُومِ كَفِيلَةٌ بِأَنَّ تَبَيَّنَ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ وَاعٍ أَنَّ الفِكْرَةَ بِحِدِّ ذَاتِهَا هِيَ سَخَافَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ وَاسْتِحَالَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ. لِمَاذَا؟ لِكَيْ يَخْلُقَ شَيْءٌ مَا ذَاتَهُ، وَعَلَيْهِ وَبِكُلِّ بَسَاطَةٍ، أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ. سَأَكْرُرُ مَا قُلْتُ. لِكَيْ يَخْلُقَ شَيْءٌ مَا ذَاتَهُ وَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ وَلَا يَكُونَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. وَضَمَّنَ العِلَاقَةَ نَفْسَهَا، مَا يُشْكَلُ انْتِهَاكَا لِلْمَبْدَأِ الأَسَاسِيِّ المُتَعَلِّقِ بِالحَقِيقَةِ وَالْعِلْمِ، مَبْدَأَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ الأَسَاسِيِّ. لَكِنَّا نَصَادِفُ هَذَا الأَمْرَ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا عَلَى لِسَانِ عُلَمَاءَ حَسَنِي السَّمْعَةِ يَعْكِسُونَهُ فِي أَحَادِيثِهِمْ.

حِينَ تَمَّ إِطْلَاقُ تِلْسُكُوبِ هَابِلِ فِي الفَضَاءِ لِإِعْطَائِنَا المَزِيدَ مِنَ المَعْلُومَاتِ حَوْلَ الكَوْنِ المُتَمَدِّدِ، تَمَّ التَّحَدُّثُ مَعَ وَاحِدٍ مِنْ أَشْهُرِ عُلَمَاءِ الفيزياءِ الفَلَكِيَّةِ فِي أَمْرِيكَا ضَمَّنَ مُقَابَلَةَ إِذَاعِيَّةٍ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ. وَفِيمَا كُنْتُ أَقُودُ سَيَّارَتِي مَاضِيًّا فِي طَرِيقِي، كَادَ الرَّجُلُ يَتَسَبَّبُ لِي بِحَادِثِ سَيْرٍ، لِأَنَّهُ قَالَ: "مُنْذُ مَا بَيْنَ خَمْسَةِ عَشَرَ وَسَبْعَةَ عَشَرَ مِليَارِ سَنَةٍ انْفَجَرَ الكَوْنُ وَدَخَلَ إِلَى حَيِّزِ الوجودِ". هَذَا كَلَامٌ عَمِيقٌ! فَمَا الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَنْفَجَرَ وَيَدْخُلَ حَيِّزِ الوجودِ؟ الاحْتِمَالُ الوَحِيدُ هُوَ عَدَمُ الكَيُونَةِ. لَمْ يَكُنْ يُوْجَدُ أَيُّ شَيْءٍ لِكَيْ يَنْفَجَرَ وَيَتَحَوَّلَ إِلَى شَيْءٍ مَا. وَتَمَّ انْتِهَاكَ المَبْدَأِ العِلْمِيِّ

الأساسي "إكس نيهيلو نيهيلو فيت"، أي لا شيء يأتي من العدم. عندما يعلن عالم فيزياء فلكية بارز أنه يمكن الحصول على شيء من العدم، ففي هذه اللحظة، يكف عن كونه عالم فيزياء فلكية حسن السمعة.

أشرت في الماضي إلى مقالة قرأتها، وقد كتبها عالم فيزياء حائز على جائزة نوبل، وهو من الساحل الغربي للولايات المتحدة. وهو كتب هذه المقالة قائلاً: "جاء الوقت الذي ينبغي فيه نبذ مفهوم التولد التلقائي لأنه غير منطقي وغير علمي". يجب أن أقول لكم يا أصدقائي الأحباء إني أعتقد أن تلك كانت المرة الأولى التي يعلن فيها هذا الأمر صراحة. كان ذلك في القرن الثامن عشر.

لكن بأي حال، قال ذلك العالم الحائز على جائزة نوبل "لم يعد بإمكاننا التحدث بشكل علمي عن التولد التلقائي. الآن، يجب أن نتحدث عن تولد تلقائي تدريجي". أنا لم أبتكر هذا الكلام، أوكد لكم ذلك. أنا قرأت ذلك وقلت "تولد تلقائي تدريجي! هذه نكتة مضحكة" لا يمكننا الحصول على شيء من اللا شيء بسرعة، يجب أن نتحلى بالصبر وأن نتنظر بما فيه الكفاية لكي يخرج شيء من اللا شيء. هذا هو التطرف الذي يقع فيه الناس ليحدثوا فرضية وجود الله.

أعتقد أن أحد أبرج الفلاسفة في القرن العشرين، وسبق أن ذكرت اسمه مرة في هذه السلسلة التعليمية وهو جان بول سارتر، الفيلسوف الوجودي الفرنسي، وفي كتابه الضخم حول الكينونة والعدم، في هذا الكتاب، هو يقول إنه إذا كان الله موجوداً فالأخلاقية مستحيلة، فلكي يكون للأخلاقية معنى يجب ألا يكون الناس أحراراً فحسب، وإنما يجب أن يكونوا مستقلين بداتهم أيضاً. وإذا كان الله موجوداً، لا يمكننا أن نكون مستقلين. وبما أنه لا يمكننا أن نكون مستقلين، لا يمكن أن نكون أخلاقيين فعلاً. إذاً، إن وجود الأخلاقية يجعل فرضية وجود الله مستحيلة.

ثم قام فيلسوف دانماركي يدعى لين بالرد على تلك الحجّة التي قدمها جان بول سارتر، وقال: "ليس وجود الله هو الذي يجعل الأخلاقية مستحيلة، بل أخلاقية سارتر هي التي تجعل إنكار وجود الله أمراً ضرورياً". هذا ما يمكن أن تختص به هذه المسألة. ليست هذه مسألة فكرية فعلاً. في نهاية المطاف، إنها مسألة متعلقة بالأخلاق. والبشر الساقطون يبدلون فصارى جهودهم لإلغاء فكرة كون الله ديناً لهم من الوجود. والضربة الكبيرة الآن المتعلقة بالتصميم الذكي ينطبق عليها الأمر نفسه. التصميم الذكي هو إرداف خلفي. إذا كان الشيء مصمماً فلا بد أن يكون ذكياً. لكننا نريد أن يكون لدينا تصميم غير ذكي، وقصد غير مقصود. وتتصاعد السخافات إلى أقصى حدود.

حقًا، إنَّ مَفْهُومَ الخَلْقِ الدَّائِي هُوَ مَحَاوَلَةٌ لِتَفْسِيرِ وُجُودِ الكَوْنِ عِبْرَ تَشْبِيهِهِ بِالْأَرْتَبِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ القُبْعَةِ، حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوْجَدُ أَرْتَبٌ فِي القُبْعَةِ إِلَى أَنْ لَوَّحَ السَّاحِرُ بِعَصَاهِ السِّحْرِيَّةِ، وَفَجَأَةً، خَرَجَ الأَرْتَبُ مِنَ القُبْعَةِ. أَنَا أَعْرِفُ كَيْفَ يَتِمُّ فِعْلُ ذَلِكَ لِكِنِّي لَنْ أَفْسِدَ الأَمْرَ الآنَ. لَكِنْ بِأَيِّ حَالٍ، هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجَ أَرْتَبٌ مِنَ القُبْعَةِ بِدُونِ أَرْتَبٍ وَلَا قُبْعَةٍ وَلَا سَاحِرٍ. إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْدُثَ الأَمْرُ فَجَأَةً، فَيَخْلُقَ الأَرْتَبُ نَفْسَهُ. أَفَصِدُّ، لِمَاذَا لَا يَضْحَكُ النَّاسُ مِنْ هَذَا الأَمْرِ؟ الأَمْرُ سَخِيفٌ. إِنَّهُ سَخِيفٌ فِعْلًا. بَدَلًا مِنَ الدِّفَاعِ عَنِ هَذِهِ الفِكرَةِ يَجِبُ أَنْ نَبْدَأَ بِالصَّحاحِ مِنَ الأَشْخَاصِ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِهَا، لِأَنَّ كَلَامَهُمْ عَيْرٌ مَنْطِقِيٌّ عَلَى الإِطْلَاقِ.

عَلَى التَّقْيِضِ مِنَ الخَلْقِ الدَّائِي - وَهُوَ اسْتِحَالَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ - تَظْهَرُ فِكرَةُ الوُجُودِ الدَّائِي، أَوْ مَا نُسَمِّيهِ فِي اللّاهُوتِ مَفْهُومَ "الكَيْنُونَةِ المُسْتَقْلَةِ". حِينَ أَرَى هَذِهِ العِبَارَةَ مَكْتُوبَةً عَلَى اللُّوحِ، أَوْ أَرَاهَا مُدَوَّنَةً فِي كِتَابِ تَدْرِيسٍ، أَعْلَمُ أَنَّ العَالِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنَ الجَالِسِينَ عَلَى المَقَاعِدِ لَمْ يَسْمَعُوا بِهَذِهِ العِبَارَةِ قَطُّ. إِنَّهَا عَامِضَةٌ جِدًّا، وَمَقْصُورَةٌ عَلَى فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ، لِدرَجَةِ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ لِفَهْمِ مَعْنَاهَا. لَكِنْ يَجِبُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ بِصَرَاحَةٍ وَبِشَكْلِ شَخْصِيٍّ، إِنِّي حِينَ أَرَى هَذِهِ العِبَارَةَ يَفْشَعُرُ بَدَنِي. فَفِي هَذِهِ العِبَارَةِ الوَاحِدَةِ البَسِيطَةِ، يَكْمُنُ كُلُّ مَجْدِ كَمَالِ كَيْنُونَةِ اللهِ.

إِنَّ مَا يَجْعَلُ اللهُ مُخْتَلِفًا عَنْكُمْ وَعَنِّي وَمُخْتَلِفًا عَنِ النُّجُومِ وَالزَّلَازِلِ وَأَيِّ مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى، هُوَ أَنَّ اللهَ، وَاللهُ وَحْدَهُ، يَتَمَتَّعُ بِالكَيْنُونَةِ المُسْتَقْلَةِ. اللهُ، وَاللهُ وَحْدَهُ، مَوْجُودٌ بِقُوَّتِهِ الخَاصَّةِ. لَمْ يَخْلُقْهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَنْسَبْ أَحَدٌ بِوُجُودِهِ، هُوَ مَوْجُودٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، الأَمْرُ الَّذِي يَجْعَلُهُ مُخْتَلِفًا عَنِ بَاقِي المَخْلُوقَاتِ. لَدَيْكُمْ أُمَّهَاتٌ وَأَبَاءٌ، إِذَا، أَنْتُمْ لَسْتُمْ مَوْجُودِينَ ذَاتِيًّا. أَنَا لَسْتُ مَوْجُودًا ذَاتِيًّا. لَيْسَتْ السَّيَّارَاتُ مَوْجُودَةً ذَاتِيًّا. لَيْسَتْ النُّجُومُ مَوْجُودَةً ذَاتِيًّا. اللهُ وَحْدَهُ يَتَمَتَّعُ بِمَفْهُومِ الوُجُودِ الدَّائِي.

لَكِنَّا نَقُولُ: "مَهَلًا" هَذَا هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يُسَبِّبُ مَعْتَرَةً لِلنَّاسِ. حَتَّى لِشَخْصٍ مِثْلِ بَرْتْرَانْدِ رَاسِيلِ، حِينَ أَلْفَ كِتَابَهُ الَّذِي يُفَسِّرُ فِيهِ سَبَبَ عَدَمِ اعْتِنَاقِهِ المَسِيحِيَّةِ، قَالَ إِنَّهُ حِينَ كَانَ فِي سِنِّ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ كَانَ يَقْرَأُ مَقَالَةً لِلْفَيْلسُوفِ جُونِ سِتْوَارْتِ مِيلِ. وَقَبْلَ ذَلِكَ، كَانَ بَرْتْرَانْدِ رَاسِيلِ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ اللهِ. لَكِنَّهُ قَالَ: "لَكِنْ حِينَ صِرْتُ شَابًّا قَرَأْتُ هَذِهِ المَقَالَةَ الَّتِي قَالَ فِيهَا مِيلٌ: "إِذَا كَانَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ صَحِيحًا، إِذَا، لَا يُمَكِّنُ لِإِلَهٍ المَسِيحِيَّةِ أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا. لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ، إِذَا، لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُسَبِّبِ اللهِ. وَأَيًّا كَانَ الشَّخْصُ أَوْ الشَّيْءُ الَّذِي تَسَبَّبَ بِوُجُودِ اللهِ، لَا بُدَّ أَنَّهُ مُتَفَوِّقٌ عَلَيْهِ. إِذَا قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ بِرُمَّتِهِ يَقْضِي عَلَى فِكرَةِ وُجُودِ اللهِ". هَذَا مَا قَالَهُ بَرْتْرَانْدِ رَاسِيلِ، وَاحِدٌ مِنَ أَلَمَعِ الأَدْمَعَةِ فِي القُرْنِ العِشْرِينَ، بَعْدَ تَأَثُّرِهِ بِفَيْلسُوفِ لامِعِ آخَرَ جُونِ سِتْوَارْتِ مِيلِ مُرْتَكِبًا خَطَأً أَوْلِيًّا وَأَسَاسِيًّا وَرَئِيسِيًّا.

لا يَقُولُ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، يَقُولُ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَتِيجَةٍ سَبَبٌ سَابِقٌ، هَذَا مَا نُسَمِّيهِ "الصِّحَّةَ الصُّورِيَّةَ"، أَيُّ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهَا. يُشْبِهُ الأَمْرَ القَوْلَ إِنَّ لَدَى المَثَلِثِ ثَلَاثَةَ جَوَانِبٍ. لِأَنَّ النَتِيجَةَ، وَبِحُكْمِ تَعْرِيفِ الكَلِمَةِ، هِيَ مَا تَسَبَّبَ بِهِ أَمْرٌ آخَرُ، وَلَا يُمَكِّنُ لِلسَّبَبِ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا إِلَّا إِذَا أُنتَجَ نَتِيجَةً. لَكِنَّا لَا نَقُولُ إِنَّ اللهَ هُوَ نَتِيجَةٌ تَسَبَّبَ بِهَا أَمْرٌ سَبَقَهُ، إِنَّهُ مَوْجُودٌ ذَاتِيًّا، وَهُوَ لَا يَدِينُ بِكَيْنُونَتِهِ لِأَيِّ شَيْءٍ سِوَى نَفْسِهِ. إِنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الكَيْنُونَةِ فِي دَاخِلِهِ. فَكَّرُوا فِي الأَمْرِ، وَأَعْتَقِدْ أَنَّ حَمَاسَتَكُمْ لِعِبَادَتِهِ سَتَزْدَادُ.

أَنْتُمْ تَسْأَلُونَ: "مَا هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ الخَلْقِ الذَّاتِيِّ وَالوُجُودِ الذَّاتِيِّ؟ أَلَيْسَ الاِثْنَانِ تَحَدِّيًّا لِلْمَنْطِقِ؟" لَا، فَالْخَلْقُ الذَّاتِيُّ غَيْرُ مَنْطِقِيٍّ وَسَخِيفٌ كَمَا سَبَقَ أَنْ رَأَيْتَا. فَكَّرُوا فِي كَوْنِ أَمْرٍ مَا مَوْجُودًا مُنْذُ الأَزَلِ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ الخَاصَّةِ، وَيَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الكَيْنُونَةِ فِي نَفْسِهِ. أَيُّ مَبْدَأٍ مِنْ مَبَادِيِ الْمَنْطِقِ تَنْتَهِكُ هَذِهِ الفِكْرَةُ؟ هَلْ يُوْجَدُ أَيُّ جَانِبٍ غَيْرِ مَنْطِقِيٍّ فِي الأَمْرِ؟ أَنَا أُدْرِكُ—أَنَا لَسْتُ مِنْ مُعْتَبِرِي المَذْهَبِ التَّصَوُّرِيِّ لِأَقُولُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ لَدَيَّ مَفْهُومٌ قَادِرٌ أَنْ يَنْجَحَ فِي اخْتِبَارِ الْمَنْطِقِيَّةِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، لَيْسَ هَذَا مَا أَقُولُهُ—أَنَا أَقُولُ بِبَسَاطَةٍ إِنَّ مَفْهُومَ الوُجُودِ الذَّاتِيِّ لَا يَنْتَهِكُ قَانُونَ الْمَنْطِقِ. هَذَا مَفْهُومٌ مَنْطِقِيٌّ بِشَكْلِ كَامِلٍ وَبَارِزٍ.

أَوْدُ التَّوَسُّعِ فِي الخَدِيثِ عَنِ هَذَا المَوْضُوعِ. لَيْسَتْ فِكْرَةُ وُجُودِ كَائِنٍ مَوْجُودٍ ذَاتِيًّا مُمَكِّنَةٌ فَحَسْبُ، لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ ثُومَا الأَكُوْبِيَّيْنَ أَحْسَنَ فَهْمِ الأَمْرِ مُنْذُ قُرُونٍ. هُوَ قَالَ: "إِنَّ كَيْنُونَةَ اللهِ، وَخِلَافًا لِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٍ، هِيَ، وَكَمَا أَسْمَاهَا ثُومَا الأَكُوْبِيَّيْنَ، كَيْنُونَةٌ صُرُورِيَّةٌ". هَذِهِ فِكْرَةٌ عَمِيقَةٌ سَاسَعِدُكُمْ عَلَيَّ فَهْمُهَا وَاسْتِعَابُهَا. مَا قَصَدَهُ الأَكُوْبِيَّيْنَ بِعِبَارَةِ "كَائِنٍ صُرُورِيٍّ" يُخْتَصَرُ بِأَمْرَيْنِ: أَوَّلًا، الكَائِنُ الصُّرُورِيُّ هُوَ كَائِنٌ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا يَكُونَ، إِنَّهُ كَائِنٌ بِحُكْمِ صُرُورَةٍ كَيْنُونَتِهِ الأَزَلِيَّةِ وَكَيْنُونَتِهِ المُسْتَقَلَّةِ. الكَائِنُ المَوْجُودُ ذَاتِيًّا هُوَ ذَلِكَ الكَائِنُ غَيْرُ القَائِمِ عَلَيَّ افْتِرَاضٍ، أَوْ غَيْرِ المُعْتَمِدِ عَلَيَّ مَفْهُومٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ صُرُورِيٌّ، لَا يُمَكِّنُ لِكَيْنُونَتِهِ إِلَّا تَكُونَ، لَا يُمَكِّنُ اللهُ إِلَّا يَكُونَ، إِنَّهُ "أَهْيَهُ" مُنْذُ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ.

وَلَيْسَتْ كَيْنُونَةُ اللهِ صُرُورِيَّةٌ فَحَسْبُ، أَيُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الكَائِنُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ إِلَّا يَكُونَ، وَبِالتَّالِيِ هُوَ صُرُورِيٌّ وَجُودِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ صُرُورِيٌّ مَنْطِقِيًّا أَيْضًا. أَعُودُ إِلَى مَا كُنْتُ أَقُولُهُ سَابِقًا، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَيُّ شَيْءٍ مَوْجُودًا الآنَ فَلَا بُدَّ أَنْ شَيْئًا مَا، فِي مَكَانٍ مَا وَبِطَرِيقَةٍ مَا يَتَمَتَّعُ بِكَيْنُونَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ، لَا بُدَّ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الكَيْنُونَةِ فِي ذَاتِهِ، وَهُوَ غَيْرُ مُشْتَقٍّ مِنْ شَيْءٍ خَارِجِ ذَاتِهِ. وَبِالتَّالِيِ، هَذَا الكَائِنُ هُوَ الكَائِنُ الأَسْمَى، إِنَّهُ الكَائِنُ المُتَعَالِي.

دَعُونِي أَتَحَدَّثُ بِسُرْعَةٍ عَنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ الأَخِيرَةِ "التَّعَالِي". حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ تَعَالِيِ اللهِ فَنَحْنُ نَقْصِدُ بِذَلِكَ كَوْنَ اللهِ أَعْظَمَ وَأَعْلَى مِنْ أَيِّ شَيْءٍ فِي عَالَمِ المَخْلُوقَاتِ المَحْدُودِ، إِنَّهُ أَعْلَى وَأَسْمَى مِنْهُ. حَتَّى الفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ لَا يُوَافِقُونَ عَلَيَّ مَا كُنْتُ أَقُولُهُ اللَّيْلَةَ يُوَافِقُونَ عَلَيَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ قَائِلِينَ: "نَعَمْ فِي مَكَانٍ مَا، وَبِطَرِيقَةٍ مَا لَا بُدَّ لِنَيْءٍ مَا أَنْ يَتَمَتَّعَ بِقُوَّةِ

الْكَيْنُونَةُ، وَإِلَّا، لَمَا أَمَكَنَّ أَيُّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ". لَا بُدَّ لِشَيْءٍ مَا أَنْ يَكُونَ أَرْلِيًّا، وَإِذَا كَانَ أَرْلِيًّا فَهُوَ أَرْلِيٌّ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ وَضْعُ حَدِّ لِكَيْنُونَتِهِ. لَكِنَّ لِمَاذَا، وَنَظَرًا لَوْجُودِ كُلِّ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فِي الْكُونِ الْمَخْلُوقَةِ وَالْخَاضِعَةِ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّحَوُّلِ، لِمَاذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ جَوْهَرٌ نَابِضٌ دَاخِلَ الْكُونِ تَشْتَقُّ مِنْهُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى؟ لِمَاذَا يَجِبُ أَنْ نَقُولَ إِنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى كَائِنٍ مُتَعَالٍ؟ هَذَا مَا أُرِيدُ أَنْ تُمَعِنُوا التَّفَكِيرَ فِيهِ.

حِينَ نَسْتَعْمِلُ كَلِمَةَ "مُتَعَالٍ" وَنُنَسِبُهَا إِلَى اللَّهِ، فَنَحْنُ لَا نَتَحَدَّثُ عَنِ التَّعَالِي الْجُغْرَافِيِّ، نَحْنُ لَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ اللَّهُ. وَحِينَ يُدْرِكُ النَّاسُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ كَائِنٍ أَرْلِيٍّ مَوْجُودٍ ذَاتِيًّا لَكِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ مُتَعَالِيًّا، أَلَا تُلَاحِظُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَوْجُودًا ذَاتِيًّا، وَإِذَا كَانَ أَرْلِيًّا، وَإِذَا كَانَ كَائِنًا خَالِصًا، فَهُوَ مُتَعَالٍ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ؟ إِنَّهُ عَلَى مُسْتَوَى أَعْلَى مِنَ الْكَيْنُونَةِ. لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ يَعِيشُ فِي جُزْءٍ أَعْلَى مِنَ الْكُونِ. لَا آبَهُ مَا إِذَا كَانَ فِي كَالِيفُورْنِيَا أَوْ شَرْقِ الشَّمْسِ أَوْ غَرْبِ الْقَمَرِ. لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَوْجُودًا ذَاتِيًّا وَأَرْلِيًّا وَكَانَ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الْكَيْنُونَةِ فِي ذَاتِهِ، فَهُوَ، بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ، يَسْمُو فَوْقَ كُلِّ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى فِي الْكُونِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ يَدْعُو اللَّهُ نَفْسَهُ "أَنَا هُوَ".

الدكتور آر. سي. سبرول هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِير، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقَدِيسِ أَنْدَرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْد بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ أَلْفَ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُون" (Everyone's A Theologian).